ـ ٩ ـ

مغامرة التجارة والعالم المتنامى

« اذا كان هناك من يقصد الرسو فى مدينة عكا السالفة الذكر ، دعه يبحر على مسافة ثلاثة أميال من كنيسة سان اندرو بسبب الصخور القريبة من سطح الماء والتى عند مرتفع تلك الكنيسة · ثم ليبحر بعد ذلك مباشرة حتى يرى ما وراء « برج الذباب » الذى كان يوما مقرا لرئيس الشرطة · ثم يستطيع بعد ذلك ان يدلف الى الميناء · وحين يدخل الميناء المذكور فليبحر من هناك بطريقة تجعل قلعة حيفا أو بورفوريا Porphyria تبقى فى منتصف مؤخر السفينة وتجعل « برج الذباب » فى منتصف مقدم السفينة طوال الوقت واذا ما حافظ على هذه الاتجاهات يمكنه أن يبحر فى سلام داخل الميناء » ·

كانت هذه هى التعليمات التى تضمنها دليل ملاحى يرجع الى القرن الثالث عشر لارشاد السفن التى تقترب من شاطىء البحر المتوسط الشرقى · وفى اللحظة التى تظهر فيها احدى السفن على خط الأفق فى نهاية رحلتها ، التى كانت تستغرق ثلاثة اسابيع من ايطاليا حتى هذا المكان ، يرسل حراس البرج أو حراس القلعة اشارات الى رؤسائهم ، وتبدأ أجراس الكنائس فى الدق ، ويشق ممثلو مواطنى السفينة وجمع غفير من سكان المدينة طريقهم الى منطقة الميناء · وكانت الألوان الحية التى كان قباطنة السفن فى العصور الوسطى يفضلون طلاء سفنهم بها ، تتوج بصاريات تخفق عليها أعلام القديس مرقص ، أو القدس بطرس أو القديس لورانس ؛ وهم القديسون الرعاة الروحيون للبحرية الايطالية ، وذلك الى جانب البيارق التى تحمل الصليب الأحمر الذى كان يعلن عن

عقيدة الصليبيين وعن الامتيازات التجارية فى نفس الوقت · وكان يوم وصول السفينة أو الأسطول البحرى ، وهو ما كان يحدث عادة ، يوم عيد بالنسبة لأصحاب الحانات والفنادق والتجـــار وكل من عداهم فى المدينة · فالحجاج والأقارب ، ورجال الأعمال الذين يحملون الانباء من الوطن سرعان ما كانوا يتركون السـفينة الى ميناء المدينـة الداخلى · ولا تلبث الصفقات التجارية ان تعقد وتتحدد مواعيد المقابلات ، وتتداول الأيدى صكوك التبادل ، وصكوك القروض ـ جميع لوازم التجـــارة ـ وتسرى الحركة فى الشرايين التجارية فى المدينة · وغالبا ما كان فى وسع المرء ان يرى عددا قد يصل الى مائة سفينة فى موانىء صور وعكا وفى ميناء يافا الصخرى الخطر · وكانت السفن الأكبر حجما تستطيع ان تحمـــل الفا من التجار والحجاج ، فضلا عن حوالى خمسمائة طن من البضائع ·

وكانت البضائع التجارية تفرغ على الســـلالم الخشبية أو الواح الخشب المحمولة على ظهـور الحمالين ، الذين كانوا فى الغـــالب من الأوربى ـ آســـيويين الذين كانوا يعرفون باســـم بولان الميـنـــاء Poulain of the Port، لـــكى توضـــع على الأرصـفة المزدحمـة في منطقة الميناء الضيقة جدا · وكانت هذه المنطقة تتميز برائحة كريهة نفاذة تفوح فى ارجائها ، لان الساحل كان المكان الطبيعى لتصريف فضـــلات وبقايا المدينة والمذابح والدباغين والصباغين الذين كانوا يسكنون المنطقة· واذا ما تم تفريغ بضائعهم ، كان التجار يؤدون عليها الرسوم المعتادة فى شرق البحر المتوسط بعد مساومات مع سلطات الجمارك · ولم يكن هناك شىء يتفوق فى التعقيد والفوضى عن الرسوم الجمركية فى العصور الوسطى ، لا سيما فى الموانىء الصليبية · فلم تكن الرسوم تختلف فقط حسب نوع البضاعة ، وانما كانت هناك رسوم مختلفة وفقا لاماكن جلب البضائع وجنسية سفينة التاجر · فقد كان على نفس البضائع المنقوله على السفينة نفسها ان تخضع لرسوم جمركية تتراوح ما بين ٢٪ الى ١٥٪ حسب جنسية السفينة وجنسية مالـكها ·

وحيثما توجد الرســـوم الجمركيـة ، توجد محاولات التهريب ، والشهادات الزائفة بقيمة البضاعة ، فضلا عن الشهادات المزيفة الخاصة بالهوية والجنسية التى يتبعها التاجر ، وغالبا ما كان تمييز هذه الأمور متروكا للتخمين الذكى : وغالبا ما كانت رشوة موظفى الميناء تدفع من أجل الحصول على اعفاء من الضرائب • فقد كان أهم التزامات المسؤولين عن الكوميونات ان يضـــمنوا أن مواطنيهم المحترمين ــ البنادقة والجنوية وأهل بيزا وغيرهم ــ سيتمتعون بامتيازات الاعفـــاء • ومع ذلك ، فان التجار الوافدين من تسكانيا غالبا ما كانوا يعلنون انهم من بيزا أو كتلان أو من مواطنى برشـــلونة لكى يستفيدوا من اعفاءات الكوميون الذى يدعون الانتماء اليه • وعلى الرغم من صرامة الاجراءات ، الا انها كانت صعبة التنفيذ •

واذا ما انتهت المساومة على الرســـوم الجمركية ، يشق التاجر ببضاعته طريقة الى الفنادق ، التى كانت تقابل الخانات ، لدى الصليبيين والوكالات الشرقية ، فى المدينة • وكانت هذه الفنادق تبنى بالقرب من الميناء على قدر الامكان • وكما يحدث فى أى مكان آخر ، كانت منطقة الميناء هى « الحى الأحمر » فى المدينـة ، على الرغـم من ان محترفات الدعارة كن يتواجدن حتى فى الفنادق ذات الحراسة الجيدة للكوميونات، بل وحتى فى المنازل التى كان يؤجرها رجال الدين (بسبب الايجار الباهظ) على الرغم من التأنيب والتوبيخ الذى كان يوجهه اليهم بابا روما • وكان السوق المربع أو الشارع الطويل الضيق ، الذى تقوم على جانبيه البيوت المتعددة الطوابق ، وبه المحـــلات والحوانيت فى الطـــابق الأرضى ، والمســـاكن فى الأدوار العليا ، بمثابة قلب مؤسسة الكوميون • وكانت الكوميونات بمثابة مدن داخل المدن • فقد كان لها كنائسها الخاصـة ، ومخابزها وحماماتها • كما وجدت الاصطبلات للخيول والبغال والجمال وأماكن السقاية (الاسبلة ، جمع سبيل) لشرب الانســـان والحيوان •

وكان أكبر مبنى ، يتألف من ثلاثة أدورا أو أربعة ، هو القصر Palazzo ومحل اقامة الفسكونت أو قنصل الكوميون · وكان هذا المبنى أيضا مقر المجلس الاستشارى حيث تقام العدالة وفقا لقوانين البندقية أو جنوة ، أو بيزا أو أمالفى أو مارسيليا أو برشلونة · وكان علم الكوميون يرفع فوق القصر ليعلن استقلاله السياسى والقضائى ·وكانت بعض القصور مجهزة بدهاليز مظلمة يحبس فيها المساجين أو يعدمون فى بعض الأحيان ·

وعلى الرغم من أن بعض الاحياء التجارية كانت لها أسواق الطعام الخاصة بها ، فان المركز التجارى الكبير ، أو مكان السوق كان يخضع لسيد المدينة · ففى مدينة كبيرة كمدينة بيت المقدس ، كانت هناك أسواق متخصصة فى بضائع بعينها · وكانت الرسوم الجمركية تدفع على الطعام الوارد الى المدينة عند بواباتها ، فى برج داوود ، ولكن ثمة رسوم اضافية كان يدفعها البائع والمشترى وهما يتفاوضان بشأن صفقتهما · فالمقاييس والأوزان والمكاييل السائلة والجافة كانت تتقرر مقابل رسم معين من قبل موظفى السوق الذين كانوا يخضعون لاشراف المحتسب · أما سوق الغلال التى كان الانسان ودوابه وربما ماشيته يتعيشون منها ، فكانت مكانا فسيحا حيث القمح والشعير والشوفان وغيرها مما يقدمه الفلاحون المسلمون والمسيحيون الشرقيون · وفى بيت المقدس كان سوق الغلال بالقرب من بوابة يافا بجوار سوق لحم الخنزير ، على حين كانت الماشية واللحوم تباع بالقرب من منطقة الهيكل · ومن المؤكد تماما ان الجزارين والدباغين قد استقروا فى هذا المكانلكى يكونوا بالقرب منمصادر والدباغين قد استقروا فى هذا المكان لكى يكونوا بالقرب من مصادر امدادهم ، وليكونوا فى نفس الوقت قرب المصرف الطبيعى للمدينة وهو وادى يوشافاط ، حيث كانوا يصبون فيه المياه القذرة ، والسوائل المستخدمة فى تجارتهم ·

وقد كانت كل مدينة تفخر بأسواقها · وكانت أسواق القدس وعكا

وصور عبارة عن ابنية عالية ذات قباب حيث كانت تقسم بمختلف البضائع على منطقة الحـوانيت · وكان التـاجر والصانع يعـرض بضـاعته فى الأبواب المفتوحة على الشارع حيث حشود المشترين رائحـــة غادية · وكانت الأسقف ذات القباب ، أو المظلات القماشية فوق الشـــارع تحمى رواد السوق من الشمس والمطر ولكنها تضفى على السوق جوا معتما · وحوار المســـاومة والنقاش فى كل لغة تحت الشـــمس وروائح التوابل المتضوعة كانت تخـتلط بالروائح الـكريهة النفاذة التى تفوح من المطاعم المفتوحة·وكانت هذه من سمات المدن الصليبية·وكانت هذه المطاعم المقامة فى الشوارع ، على الرغم من أصلها الشرقى ، قد برهنت على كونها ذات فائدة عملية للغـاية فى أماكن يفد اليهـا الحجاج باستمرار ، أى انهـا كانت تفى بحاجات بلد كانت نسبة كبيرة من ســكانه (فى البداية على الأقل) تتألف من العزاب غير المتزوجين ·

وكان فى جميع المدن الكبرى تقريبا يوجد شارع أو منطقة مخصصة للصرافين بالقرب من الأسواق · وكانت الصيدفة مهنة ترتبط بالمـدن · للصرافين بالقرب من الأســواق · وكانت الصيرفة مهنة ترتبط بالمـدن · الا انها فى الأرض المقدسة كانت ضرورة يومية بسبب ســيل الصليبيين والحجاج والتجار الوافدين من شتى انحاء أوربا · وفى المصرف بطاولاته التى اتخذت شكل الصف كان يتم تبادل العملات الأوربية بالعملة المحلية والتعامل بمختلف النقود وأصنافها التى لا تحصى والتى سكت فى مئات دور سك النقود الأوربية ، وكان يتم تقدير قيمتها الأساسية كمعدن ، ثم تحويلها الى عملة محلية · وكان على المرء أن يتذكر ان العملة الأوربية ـ الفرنسية على سبيل المثال ـ كانت تخضـــع دائما للتخفيض من قبل الحكومة (هـذا هو المرادف الوسيط لعملية تخفيض ســعر العمـلة) أو التزييف من قبل التجار المحليين · وغنى عن القول ان كثيرا من الحجاج كانوا يشعرون بأنهم قد خدعوا فى عملية الاستبدال ·

وبالاضافة الى ذلك ، فان الصيارفة كان عليهم ان يتعاملوا بالعملات الموجـودة فى الشرق الأدنى الى جانب عمـــلات أوربا · وكانت العملة الرئيسية فى البلاد قبل الغزو الصليبى هى العملة المصرية أى الدينـار الذهبى والدرهم الفضى الفاطميين · وكانت هـــذه العمـــلات تختلط ، لا سيما فى المدن البحرية ، بعملات سوريا ، وبلاد ما بين النهرين ، بل وعملات فارس · وكانت كميات من مثل هذه العملات ، ان لم تكن مدخرة ، ترد الى دور السك الخاصة بالنقود الفرنجية من خلال الضرائب ، بيد أنها ظلت متداوله بعد الغزو · وقد حاولت دور سك النقود الفرنجية ان تقلد ، بطريقة ساذجة وفجة ، العملة الاسلامية أيضا · وبالتالى ، فان تبادل العملات الاسلامية والفرنجية كان يحدث يوميا حتى فى الأعمال العادية · ومن ناحية أخرى ، لم تكن العلاقات التجارية مع البلاد الاسلامية المجاورة مقطوعة انقـطاعا كلـيا ، حتى فى أوقات الحـرب والحصـار · وكانت هذه العلاقات تنتعش وتزدهر ابان أوقات السلم · هـــذا الموقف ، مثل التجارة البحرية مع شمال أفريقيا ، جعل العملات الاســـلامية محـــلا للتداول · وقد نضيف اليهـا العملة المجلوبة مع الحجاج من المسيحيين الشرقيين ومع المسلمين واليهود · وهـكذا فان الصيرفى الصـليبى كان بمثابة الوسيط بين العمـــلات الأوربيـة وغير الأوربيـة · ولكى يعالج الصيارفة مشاكلهم على نحو فعال ، فانهم كانوا يميلون الى التخصص · ففى بيت المقدس مثلا ، كان الصيارفة الفرنجة يحتلون شارعا ، على حين كان نظراؤهم فى الجانب الآخر هم الصيارفة السوريون وهم من المسيحيين الشرقيين الذين يحتمل انهم تخصصوا فى العملات الشرقية ·

ومع مرور الوقت ، ضرب الصليبيون عملاتهم الذهبيـــة والفضية والنحاسية · وكانت العملة الذهبية الصليبية تسمى denarius وهو ما يذكرنا بأن أول العملات الذهبية التى عرفها الأوربيون كانت بيزنطية ، حيث ان العمـــلات الذهبيـــة التى كانت متـــداولة فى مســـتعمراتهم

كانت عملات الدول الاسلامية المجاورة · وسرعان ما أخـــذ الصليبيون بعدها يقلدون الدينار والدرهم الاسلاميين · وبمرور الزمن تحسن التقليد الساذج الذى عرفته العملات الباكرة ، بيد أن خاصية العملات الصليبية ظلت دون مستوى العملات البيزنطية والاسلامية من حيث الوزن والسبيكة خصوصا · وليس من المؤكد ما اذا كان طـراز العمـلة الصليبية يخـفى عن أى تاجـر محترف قيمتها الحقيقية ، ولـكنها مع ذلك كانت تقبل فى التجارة العالمية فى حوض البحر المتوســط · وعلاوة على ذلك ، فان العملات الصليبية فى سوريا صارت هى العملة المعول عليها فى معاملات ســكان البــلاد · وفى الوقت نفســه ، كان الصليبيون يسـكون عملاتهم الخاصة من الفضة والنحاس على نمط العملة الفرنسية المعاصرة لها · فالى جانب اسم الملك الحاكم الذى كان يكتب على الاطـــار ، والصليب المنقوش فى الوسط ، كانت مثل هــذه العملات تحمل على الوجه الآخـر صـــورة برج داوود أو صـــورة الملك الحاكم · وكانت أغرب العملات الصليبية طرافـــة هى تلك التى ســـكت بعد منتصف القرن الثالث عشر وعليها كتابةعربية بمجد الثالوث المقدس ! لقد كان ذلك حلا عمليا يسمح لدار سك النقود المسيحية ان تعلن عن عقيدتها دون حنث أو عبث بالمقدسات ، وان تستفيد فى الوقت ذاته من السوق العالمى ·

واذا كانت الأسواق المحلية تموج بالحركة فانها كانت تخدم أساسا حاجات السكان المحليين · وكان هذا الموقف فى فلسطين وســـوريا قبل قدوم الصليبيين · ولكن غزوهم للمنطقة أضاف بعدا جديدا الى الحياة الاقتصادية للبلاد ، وأهميتها التاريخية تتعدى حدودها غير الثابتة ·

ولن نقع فى شباك المبالغة اذا ما قررنا ان فترة الحروب الصليبية توافقت مع الكشوف الكبرى للمناطق المأهولة من العالم · ولم يكن الدافع الى اكتشاف المجهول نتيجة مباشرة للحروب الصليبية ، ولكن هذه الحروب

كانت أداة لخلق الظروف المادية والنفسية التى أدت الى هذه الانطلاقة الأولى نحو الاستكشاف ، قبل حوالى ثلاثمائة سنة من عصر الاستكشاف العظيم · وقد تحول أبطال حركة الكشوف صوب الغرب والجنوب يجوبون المحيط الاطلنطى · ولكن لن ينسى أنهم كانوا يريدون الوصول الى نفس الأهداف التى وصل اليها التجار والمستكشفون والمبشرون فى ترحالهم قبل قرون ثلاثة فى عصر الصليبيين ·

وفى بداية القرن الثانى عشر ، كانت التجارة قائمة ومستمرة مع حوض البحر المتوسط الشرقى ، وشواطىء أفريقيا الشمالية والشرقية ، بل ومع أواسط آسيا والشرق الاقصى (على الرغم من قلة حجم هذه التجارة) · فقد حافظ التجار والبحارة فى جنوب أوربا على حلقات الاتصال مع أسواق الشرق المتوسط الكبرى · وكانت القسطنطينية هى أكبر هذه الأسواق التى كانت الى جانب منتجاتها التى تخلب الالباب ، نهاية رئيسية للطرق التجارية العظمى على محور الشمال ـ الجنوب ، من اسكندنافيا الى شرق المتوسط (وأفريقيا أحيانا) وعلى محور الشرق ـ الغرب من الشرق الاقصى الى البحر المتوسط · وكانت الاسكندرية تنافس القسطنطينية فى أهميتها ، وبينها عدد كبير من الموانىء الأصغر حجما مثل دمياط وانطاكية ·

وفى العصور الوسطى الباكرة ، كانت أمالفى والبندقية هما المدينتين الأوربيتين الرئيسيتين اللتين تتوسطان الطريق الى أوربا الكاثوليكية ، وبيزنطة الأرثوذكسية ، والعالم الاسلامى · وكان أحد الملامح الرئيسية لهذا النشاط التجارى الباكر متمثلا فى حقيقة ان التجار الأوربيين لم يكونوا قادرين على التوغل خلف نطاق التجارة · فالابوثيكاى البيزنطية والفنادق الاسلامية فى المدن البحرية وعند نهايات الطرق التجارية ، كانت هى أبعد ما يمكن للتاجر ان يصل اليه · وكان أى مكان خلف هذه

النزل بمثابة منطقة محرمة على الأجانب · وكان هـــذا الاجـراء يسمح للسلطات المحليـــة بالتحكم فى سيطرتها على الصـــادرات والواردات والأسعار والضرائب والرسوم الجمركية ، فضـلا عن الاحتفاظ باحتكار طرق التجارة العالمية الكبرى للمواطنين وللتجار أصحاب الامتيازات ·

وقد إنهار هـذا الحائط الخفى ، والقوى فى الوقت نفسـه ، الذى كان يفصل أوربا عن مناطق الامداد خلال عصر الحروب الصليبية · ومع حلول القرن الثانى عشر لم يعد التاجر الأوربى ينتظر فى القسطنطينية أو انطاكية أو عكا أو حتى فى الاسـكندرية ودمياط حتى تصـــل قوافل الجمال أو السفن المحملة بالبضائع · فقد شقوا طريقهم فعلا الى الأراضى الداخلية القريبة ـ مثل دمشـــق وبغداد وأرمينيا ـ ومع بداية القـــرن الثالث عشر وبعد قيام امبراطورية المغول الآسيو ـ أوربية ، وصلوا الى مناطق الحدود بين أوربا وآسيا ، وابحروا فى المحيط الهندى بل ووصلوا الى أرض التوابل العجيبة فى الهنـــد الصينية · وهكذا خـرج العـالم المسكون ، الذى عرفه الاغريق بفضـل غزوات الاسـكندر الأكبر والذى وصل الى مشارف الهند ، خرج عن حدوده الضيقة وفتح قارة بأسرها · وما أدى الى الزحف الهائل تجاه الشرق كان سـحر الربح الخلاب · وكانت هناك بعض المحاولات الغامضـــة فى مجال الدبلوماسية العالمية والجهود التبشيرية لنشر المسيحية ، الا أنه من المناسب ان نقدم لقصـة عالم العصور الوسطى المتسع بوصف صحيفة فى كراسة حساب ايطالية عنوانها « باسم الله وباسم الربح » !

ففى بداية الأمر كانت الأسواق الكبرى فى حوض البحر المتوسـط هى الهدف المنشود · ويمكن فهم مدى تأثير هذه الأسواق على المعاصرين من خلال فقرة نقتبسها من وليم الصورى مؤرخ الحروب الصليبية الكبير اذ يقول :

« للاسكندرية شهرتها حيث انها تستقبل عددا من البضائع من كل شكل أكثر مما يرد الى أية مدينة أخرى · فكل ما يفتقر اليه عالمنا من التوابل ، والجواهر والكنوز الشرقية والبضائع الأجنبية كان يرد الى الاسكندرية من الهندين وسابا وبلاد العرب بل ومن اثيوبيا ومن فارس وغيرها من البقاع القريبة · وهكذا فان جماهير الناس من الشرق والغرب تتجمع هناك · ويجعلون من الاسكندرية سوقا عامة للشرق والغرب · »

ومؤرخ آخر معاصر لوليم الصورى ، هو بنيامين التطيلى الذى كان أكثر اعتيادا على المدن الكبيرة المزدهرة فى موطنه بالاندلس ، ولكنه لا يجد الكلمات التى تسعفه فى وصف مدينة القسطنطينية :

« التجار من كل شكل يأتون الى هنا من أرض بابل ، وجميع انحاء شنعار وفارس ، وميديا ومملكة مصر ، وهم يفدون أيضا من أرض كنعان (ربما يعنى أرض السلاف) ومملكة روسيا (كييف) ، ومن المجر ومن أرض البتشنج Petchenegs ، ومن أرض الخزر ومن لمبارديا واسبانيا · انها مدينة تموج بالحركة والنشاط ، ويفد اليها التجار من شتى الانحاء عن طريق البر والبحر · وليست هناك مدينة تشبهها سوى بغداد ، مدينة اسماعيل الكبرى » ·

وثمة أوصاف مشابهة لأسواق أخرى كبيرة فى شرق البحر المتوسط يمكن ان نجمعها فى سهولة ويسر من المصادر المعاصرة الا ان قليلين من الأوربيين هم الذين توغلوا خلف الحدود المصطنعة لهذه المراكز التجارية · اذ كان كل امرىء يعلم ان الثروات الكبرى والتنوع المذهل فى السلع لم يكن انتاجا محليا ، وانما قد اتى من الجنوب والشرق · وفى بعض الاحيان كانت الأماكن التى جلبت منها بعض المواد معروفة ، وفيما عدا ذلك كانت المعلومات شحيحة للغاية · اما المعرفة الأوسع ، فكانت بين العمليين من الناس المشتغلين بالنقل والتجارة ، أكثر مما توجد

بين العلماء · فبالنسبة لهولاء ، شانهم فى ذلك شـأن رسـامى الخرائط فى العصور الوسطى الباكرة ، كان الفردوس موجودا فى مكان ما صوب الشرق · وآدم وحـــواء ، اللذان كانا يستران عوريتهما فقط ، يحتلان الركن العلوى من خرائط العصـور الوسطى (الجـزء العلوى يشير الى الشرق وفقا لاستخدام أهل العصـــور الوسطى) · وغالبا ما كان اثنان من الانهار الأربعة المذكورة فى سفر التكوين ٢ ، ١٠ ينبعان من هـــذا المكان ، ويختفيان فى التربة ، ثم يظهران بشكل اعجازى مرة أخرى فى هيئة دجلة والفرات · ولأن هناك بعض التخبط بشأن النهرين الآخرين ، فليس هناك شك فى ان نهر النيل واحد منهما ، على حين كان نهر الجانج هو النهر الثانى احيانا ، وكان الأكثر استنارة يرسم شعلة وطفلا ملائكيا « شروبيم » قرب هذا الفردوس (تكوين ٣ ، ٢٤) أو يعزلها عن الأرض المسكونة بواسطة الجبال واللهب والصحراء · والاســكندر الأكبر فقط (حسب احـــدى الروايات الخيالية التى نسجت حوله فى العصـــور الوسطى) هو الذى وصل ، بعد فتحه للهند ، الى مدينة حيث أخبره أحد اليهود انها الجنة الأرضية !

وعلى أية حـال فان عصر الحروب الصليبية ، قد شـــهد اختفاء الحانات البيزنطية عند نهاية الطرق التجارية والخانات التى كان التاجر الأجنبى يلقى فيها نوعا من التسامح والتى كان يخضع فيها للرقابة ابان اقامته المحدودة فقد ضمنت الفنادق التى انتشرت آنذاك من القسطنطينية عبر أرمينيا المسيحية ، والمستوطنات الصليبية ، بل وحتى فى الاسكندرية الاسلامية ·· ضمنت هذه الأماكن السكن والعلاقات الخارجية والمحلية الضرورية للتجار · وبعد ذلك بفترة ، كان التجار يدخلون حلب ودمشق وبغداد عند نهايات الطرق البرية والبحرية الآسيوية وبعدها وصلوا الى طرابيزون ، وكافا وتانا على البحر الأســـود · وفى ذلك الحين كانت طرق تجارة القوابل قد أصبحت معروفة ، وقدر للأوربيين الأوائل الوصول

الى الهند والصين ، وجـزر اندونيسيا • وعلى مـدى قـرن كامل كانت آسـيا ترتبط بأوربا بحجاب من الغموض ، كان يحيط بهـا منذ اجتاح البرابرة أوربا فى القرن السادس ، وقد آن لهذا الحجاب ان يزول ولكن هذا لم يعمر طويلا ، وبعد ذلك بمائة سنة • دخلت آسـيا فى الظـلام من جديد ، انتظـاراً لاعادة استكشافها على يد الايطاليين والأسـبان والبرتغاليين فى القرن السادس عشر •

وليس هنـاك ما يمـكن ان يعبر عن الآفاق الآخـذة فى الاتسـاع بطريقة أفضل مما جاء فى الصحيفة الأولى لأحسن مذكرات رحالة فى العصور الوسطى ، وربما فى أى عصر آخر ، والتى أملاها سجين فى أحد سـجون جنوة على رفيق له فى السجن ١٢٩٨ م وهو روستشيللو البيزى Rusticllo of Pisa اذ يقـول : « منـذ خـلق ادم الى يومنا الحالى لم ير انسان ، سواء أكان وثنيا أو مسلما أو مسيحيا أو غير ذلك من أى جنس أو عصر ، مثل هذه الأشياء الكثيرة جدا والعظيمة جدا » • وهكذا يدعو ماركو بولو سـامعيه ليقرأوا عن « تنوع ممالك واقاليم الشرق •• وأكثر الخصائص والميزات ايثارا للدهشـة والعجب لا سـيما فى أرمينيا وفارس والهند وتارتاى » ولكن ماركو بولو لم يكن أول من توغل فى آفاق آسيا اللامحدودة • وبحلول سنة ١٢٤٥ م كانت هناك سفارة مسيحية قد سافرت بالفعل الى الشرق على أمل عقد تحالف مع المغول ضد المسلمين ، فقد قام جيوفانى Giovanni of Piano Carpini (١٢٤٥) وانـدريه اللونجـومو André of Longumeau (١٢٤٩) وولـيم الـربروكسى Willam of Rubruquis (١٢٥١) برحلاتهم قبل ماركو بولو • ولكن رحلته هى التى حظيت بالشهرة عبر التاريخ لأنها اطلعت أوربا على أسرار الشرق العجيب •

• ... والذى كان يجذب الأوربيين تجاه الشرق يمكن تلخيصه فى كلمة

بكثير من معناها الحديث · فلم تكن تحتوى فقط على التوابل والعطور ، ومواد الصباغة والمواد الطبية من الشرق ، ولكن أيضا على كل أنواع الواردات من آسيا وأفريقيا · وثمة كاتب من القرن الثالث عشر هو هيون دى مرى Huon de Méry يصف تاجرا بأنه « بائع التوابل والأطعمة الأجنبية » وربما يكون هذا الكاتب هو أدق من اقترب من تحديد مصطلح « توابل » الذى شاع فى العصور الوسطى · ولكن فى عصر الحروب الصليبية حين لم تكن « التوابل » من مواد الرفاهية ولم تكن شائعة فى أوربا ، كان الطلب عليها كافيا لادارة عجلة الحياة الاقتصادية الأوربية لعدة قرون ·

وكانت مواد الصباغة مطلوبة فى مراكز النسيج الكبرى فى شمال ايطاليا وفى انوال اقليم الفلاندرز ، ومراكز النسيج الصغرى فى فرنسا وألمانيا وانجلترا · وكانت الاصباغ ذات أهمية أساسية لان جزءا منها فقط كان ينتج محليا ، وكانت الاصباغ المحلية أقل عادة فى جودتها · و « التوابل » الأخرى كانت تتضمن العطور وكافة أنواع البخور · وفى هذا النمط من البضائع الشرقية خلقت ذكريات الماضى القديم مع ارتباطها بالكتاب المقدس صورا قدر لها ان تستمر فى الوجود حتى العصور الحديثة · ولم يكن كل زبائن العطور من النساء · بل على العكس من الاعتقاد الشائع ، كان الرجال فى العصور الوسطى ، بما فى ذلك رجال الكنيسة ، يستخدمون العطور · والدليل على ذلك ان رجال الكنيسة الفلسطينيين أثناء زيارتهم لبلاط الملك هنرى الثانى ملك انجلترا وبخوا فى قسوة بسبب سحابة العطر التى كانت تحيط بهم فيما يبدو ·

وفى المعنى الأدق للكلمة ، كانت التوابل تتضمن الاعشاب ، والأعشاب العطرية ، ومستخرجات النباتات والفواكه أو عصيرها المستخلص كبهارات أو كمادة لتركيب الصلصة ومن أهم استخدامات

التوابل على أية حال كان حفظ الطعام لأطول فترة ممكنة · وكانت بعض التوابل ، وربما كان الفلفل أهمها ، تستخدم كبهارات وكحافظ للطعام · ومن هنا لم تكن هناك الا خطوة بسيطة تجاه صيدلة الأدوية وهى خليط من المعرفة القديمة والتراث الكلاسيكى والوسيط فضـــلا عن الملاحظات التطبيقية · بل ان التوابل المجلوبة من اقصى بقاع الأرض كانت موجودة باستمرار فى مخزن بائع العقاقير ، الذى كان يضم الذهب والفضة بين محتوياته · واذا ما اعتبرنا أسعار التوابل المرتفعة أدركنا مدى تكاليف العلاج ·

وكانت المنسوجات ، ولا سيما أكثرها فخامة ، تحتل مكانة تقترب من مكانة التوابل فى التجارة مع المشرق · ومن الطبيعى ان الفلاندرز ، وانجلترا فى وقت لاحق ، وشـمال ايطاليا ، كانت من أكبر مراكز انتاج النسيج ، ولكن الشرق كان هو الذى يغرق الغرب بالمنتجات الفاخرة منه · وعلى الرغم من الحقيقة القائلة بأن المنسوجات القطنية والكتانية كانت تنتج فى أوربا ، فان الجودة التى تميزت بها المنتجات الشرقية كانت تجد لها سوقا فى الغرب فى سهولة ويسر · وكانت أقمشـة الشرق الفاخرة ، مع دائرة المستهلكين المحدودة نسبيا ، هى السبب فى اضفاء جـو خاص على التجارة الشرقية ، فالحرير من أجـود الاصناف ، بل والأقمشـة الحريرية المطـرزة ، والقصب بخيوط الذهب والفضـة والبالدكينو baldechino (الذى يشـير الى صـناعتها فى بغـداد) والدمشـقى (من دمشق) والسامايت من اليونان أو بيزنطـة ، والتفتاه من فارس ، والستان من زيتون ، وهى مدينة تسوين ـ تشاو ـ فو فى مقاطعة فو ـ كين الصينية ، والمنسـوجات الأرخص مثل البكرم من بخارى والكاميلوت (من وبر الجمل) ، وما أشبهها ، كانت غريبـة على العين والملمس على حـد سواء · ولم يكن تفوق المواد الأولية الخـام وحـده ، ولكن الصناعة العجيبة والرسوم والتصميمات هى التى ساعدت المنسـوجات الشرقية ،

فضلا عن أن الألوان الزاهية ـ الأزرق والأحمر ، والارجوانى ، والاخضر بدرجاتها المختلفة ـ ميزت الثيـاب الكنسية والملـكية وثياب الأمـراء · وكانت المجوهرات والأحجار الـكريمة تأتى مع الأقمشـة من الشرق على الرغم من أنه فى هذا المجال كان الغرب يبيع المرجان للشرق ·

وكانت المنتجات الأجنبية ، سواء طبيعية أو صناعية ، تحمل الأسماء الغـربية الرنين للبقـاع البعيدة · وقـد كتب مؤرخ معـاصر أن ثمـة أوديسا للتجار كانت تسير فى خطى موازية لالياذة الفرسان الصليبيين · فمن الشرق الأقصى ، ومن جزيرة زيبانجو (اليابان) التى تحدث عنها ماركـو بولـو ، ومن اليـافاس Javas (بوزيثو وسومطرة) وكاتاى ، وتارتارى والهند الصينية ، كان من المعتاد أن تسافر البضائع التجارية عبر الطريق البحرى الأطول والأرخص والأكثر امنـا فى الوقت نفسـه ، وتتغير السفن ، واطقمها والبحارة عـدة مرات حتى تصل الى سـواحل البحر المتوسط · وكان البحارة والتجـار الصينيون الذين يستخدمون سفنا كبيرة تمخر عباب البحار ، وهى التى حازت أعجـاب ماركو بولو ، يحضرون البضائع من سيلان أو مالابار على الساحل الجنوبى الغربى للهند ، ومن هناك يواصـل الرحلة البحارة والتجـار الهنود اذ كانوا يبحرون باتجاه الغرب عبر المحيط الهندى ، الذى كثيرا ما كان يشـار اليه فى ذلك الزمان باسم البحر العربى · وكان المجرى البحرى لهم الى الغرب يتجه اما الى اتجاه هرمز والخليج الفارسى أو يستمر نحو الغرب حتى عدن فى شبه جزيرة العرب · وكان الطريق الرئيسى ، اذا لم يتعرض لعبث قراصنة الخليج الفارسى ، يستمر شمالا حتى دلتا نهر الفرات عند رأس الخليج · الا أن البحارة غالبا ما كانوا يهجرون هذا الطريق القصير بسبب القراصنة الذين كانوا يمارسون نشـاطهم من قواعد على الجزر الصغيرة المحيطة بمدخل الخليج الفارسى · ومن ثم كانت السفن الهندية تفرغ حمولاتها عند مدخل الخليج وتواصل الرحلة بها سفن أصغر حجما

يقودها بحارة من الفرس أو العرب · والطريق البحرى كان ينتهى فى البصرة ، الميناء الرئيسى فى جنوب العراق ، وهنا كانت البضائع تفرغ ثانية وتنقل الى القوارب النهرية التى تسير بهـــا فى نهر الفرات حتى بغداد · وكانت بغداد أو دمشق هى عادة المحطة النهائية بالنسبة للطرق الشرقية · وكان على التجار الأوربيين ان يقوموا بالتعاقدات على أعمالهم هناك وينقلون مشترواتهم على ظهور الجمال الى انطاكية أو صـور ، أو عكا أو اياس (فى أرمينيا السفلى) · وفى بعض الأحيـــان ، كان التجار المسلمون أو المسيحيون الشرقيون مثل « الموصليين » يفـدون الى الموانى المسيحية فى المستوطنات الصليبية ، بل وربما كانت هناك فروع لشركاتهم هناك · وحينئذ تقوم بضائع الشرق النفيسة بالشطر الأخيرة من رحلتها صوب أوربا · وكانت السفن الأوربية تحمل الحمولة الغالية من محطات العبور (الترانزيت) فى المستوطنات الصليبية ، وبفضـــل ارادة الله والريح تصـــل الى البندقية أو بيزا أو جنوة بعد فترة تتراوح ما بين ثلاثة وخمسة أسابيع ·

وكان الطريق البحرى الثانى يتفرع من المحيط الهندى ، وبدلا من الأبحـــار فى الخليج الفارسى يسير بحـــذاء ســـاحل مسقط وعمان وحضرموت ، لتفرغ السفن حمولاتها فى عدن ، وربما تبحر خلال مضيق باب المندب بين شبه الجزيرة العربية واثيوبيا وتفرغ حمولاتها فى زبيد · وكان ميناء زبيـد هو محطـة الوصـول الأخيرة لسفن المحيط الهندى · وهنا تنقل الحملة الى سفن أخـرى أخف وزنا تصلح للملاحة فى البحر الأحمر قبل ان تواصل رحلتها صوب الشمال · وكانت الجزر والشعب المرجانية والمياة الضحلة فى البحر الأحمـر تتطلب سفنا صغيرة الحجم كما تتطلب وجود بحارة معتادين على أخطار هذه المياه · وهناك كانت سفن التجار تقابل سفن الحجاج وهى تشق طريقها الى ينبع وجـــدة ، موانئ المدينـــة ومكة · وكانت السفن المحملة بالبضائع تبحر صـــوب

الشـــمال الى الموانىء المصرية فى عيذاب والقصير ومنها تنقل بقوافل الجمال عبر الصحراء الى الجنادل عند أسوان أو عند قفط · ومن هنـا تحمل القوارب النيلية الحمولة حتى دمياط أو رشيد أو الاسـكندرية · ومن هذه الموانىء كانت السفن الأوربية تحمل البضائع الى موانىء جنوب أوربا ·

وعلى الرغم من ان هـــذا الطريق كان أكثر الطرق التجارية أمنا وأكثرها استخداما ، فقد كان هناك محـــور شرقى ـ غربى تجارى ثالث ينقل البضائع الشرقية من الشرق الأقصى الى الغرب على ظهور الجمال · وكانت محطـــاته النهائية فى الغرب هى مـــدن كافا فى كريميا ، وتانا وطرابيزون على شـــاطىء البحر الأســـود والقسطنطينية واياس فى أرمينيا السفلى · ومن هـــذه المحطات النهائية كان التجـــار الايطاليون يبدأون رحلتهم الطويلة صوب شـــواطىء بحر الصين · وعلى حين كان الطريق البحرى يستغرق حـــوالى عامين ، كانت الطريق البرى اقصر أو تستغرق الرحلة عليه حوالى تسعة أشهر · وعلى الرغم من ان الطريق البرى ـ الذى غالبا ما كان يطلق عليه اسم طريق الحرير لتأكيد جاذبيته الرئيسية ـ كان معروفا منذ العصور القديمة فان استخدام الأوربيين له لم يصبح واقعـــا الا بعد تأسيس وتدعيم امبراطورية المغـــول الكبرى (حوالى ١٢٥٠) · وعندها ، كما لوحظ فى أحد كتب الارشاد التجارية الايطالية ، صـــار فى امكان المرء ان يمر فى تلك البقاع الشاسعة وهو آمن تماما ، سواء أكان مروره ليلا أو أثناء النهار ·

وكانت هناك بعض المنتجات الأوربية القليلة التى تصدر الى الشرق الأقصى مباشرة فى مقابل الحرير النفيس · وكان الاجراء العـــادى هو تبادل المنتجات الأوربية بالمنتجات المحلية على طول الطريق · وكان هناك طريقان بصفة أساسية يؤديان الى الشرق ، احدهما شـــمالى والثانى

جنوبى ثم يتفرع الأخير أيضا باتجـاه البحر العربى أو الهند · وغالبا ما كان التجار يختمون رحلتهم الشرقية فى مدينة سراى Sarai على نهر الفولجا أو استراخان على بحر قزوين أو مدينـة أورجنج على بحر آراك ؛ على حين لم يكن الآخرون يغامرون بالدخول الى ما وراء تبريز فى فارس · أما الأكثر مغامرة اى أصـحاب الشركات التجـارية الكبيرة فكانوا يعبرون حتى اماليغ ومنها الى بكين · وكان الاتجاه الجنوبى من اياس وتبريز يسير بحذاء شاطىء بحر قزوين ثم يعبر ميرثى ، وبخارى ، وسمرقند وكشـــجر ويستمر حتى يركند وخوتان وبكين ، ما لم يختر التاجر ان يعرج على كابول ويصـــل الى الدولة الاســـلامية فى الهند وعاصمتها دلهى ·

وكانت الحروب الصليبية ، وجرأة الايطاليين ومهارتهم بالاضافة الى الغزو المغولى ثلاثة عوامل مختلفة ، تفاعلت سـويا لتخلق مجموعة المراكز التجـارية التى أرست أسس الاتصـــالات الأوربية الآسيوية · وبالنسبة لانسان العصور الوسطى ، الذى كان يشعر شعورا عميقا بأن الأعاجيب ، والعالم الجديد الذى يســـمع عنه مغلفا بوصف ضبابى ، فضلا عن السلع والبضائع الشرقية التى تؤكد وجود هـذا العالم ، كان هذا بالنسبة له معجزة أخرى من معجزات الرب · حقيقة لقد كان هناك من يشكون فى هذا ولكنهم كانوا شـــكاك لأسباب خاطئة وحينما ضغط على ماركو بولو وهو على فراش الموت لكى يعترف بأن حكايته عن رحلته حافلة بالأساطير والخرافات ، لم يستطع ان يقول سوى انه لم يرو كل ما عاشه ورآه حقا ·